ردمد ورقي: 2571-9971 المجلة الأكاديمية للبحوث القانونية والسياسية ردمد إلكتروني: 2661-7404
السنة: 2020 المجلد: الرابع العدد: الاول

معالم الوحدة الوطنية من خلال وثيقة المدينة
دراسة تأصيلية تحليلية

د/ المصطفى السماحي
باحث في الفقه وأصوله– المغرب

تاريخ إرسال المقال: 26 /12/ 2019 **تاريخ قبول المقال:** 19 /02/ 2019

ملخص:

مما لاشك فيه أن حب الوطن من الأمور الفطرية التي جبل عليها الإنسان، فليس من الغريب أن يحب الإنسان أرضه ووطنه الذي نشأ فيه وترعرع، ولذلك أقر الإسلام هذا الحب وأكده، بل وعدّ الدفاع عنه جهادا في سبيل الله، ثم جاءت "وثيقة المدينة" لتحدد معالمه وأسسه، إن على المستوى الفطري، أو المستوى التشريعي.

الكلمات المفاتيح: معالم– الوحدة– الوطن– وثيقة– المدينة.

Abstract:

There is no doubt that the love of the country was born with. It is then not strange that a person loves his country where he grows up and flourishes. Islam has accordingly not only put the emphasis and the focus on this love, but also has considered defending it part of JIHHAD.Therefore, the document of the city came to state its features and foundations, whether at the innate level, or the legislative level.

Keywords: Landmarks - Unity - Homeland - Document - The City

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مسبغ النعم، المتفرد بالقدم، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى الآل والصحب والتابعين.

أما بعد:

فلاشك أن حب الوطن من الأمور الفطرية التي جبل عليها الإنسان، فليس من الغريب أن يحب الإنسان أرضه ووطنه الذي نشأ فيه وترعرع، ولذلك أقر الإسلام هذا الحب وأكده، بل وعدّ الدفاع عنه جهادا في سبيل الله فقال سبحانه: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ

حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ}[الحج:39-40]، وقال تعالى – في قصة طالوت وجالوت- : { وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا}[البقرة:246]، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف يُخاطب مكة المكرمة مودّعا لها، يوم أن أُخرج منها مُرغما، فقال: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»[1]. وفي رواية أخرى: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[2]. فهذه النصوص وغيرها تدل على أن حب الوطن من الإيمان.

وإذا كان الإسلام قد اعتبر حب الوطن شيء فطري في الإنسان، فإنه لم يترك الأمر على عواهنه، بل حدد معالمه وأسسه كما ترسمها "وثيق المدينة" التي تعتبر دستورا للدولة الوليدة، ينظم علاقة المواطنين بوطنهم، وعلاقتهم ببعضهم ومع غيرهم.

فقد كان لوثيقة المدينة، ومثلها باقي الوثائق السياسية، قصب السبق في تاريخ الدساتير المنظمة، حتى قال عنها الدكتور محمد عمارة إنها "أول عقد اجتماعي وسياسي وديني – حقيقي وليس مفترضا ولا متوهما- لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يعتبر الآخر جزءا من الرعية والأمة والدولة – أي جزءا من الذات – له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات"[3]، فقد ركّزت هذه الوثيقة، أكثر ما ركّزت، على جمع الكلمة ورصّ الصفوف، وبث الروح الإنسانية التي تذوب الحساسيات والنعرات العصبية والقبلية، وغيرها من "المبادئ التي تشعر أبناء الوطن الواحد بمختلف أجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم أنهم أسرة واحدة مكلفة بالدفاع عن الوطن أمام أي اعتداء يفاجئهم من الخارج، فالمساواة قامت بينهم على أساس القيمة الإنسانية المشتركة؛ الناس جميعا متساوون في أصل الكرامة الإنسانية، وفي أصل التكليف والمسؤولية، وأنه ليس هناك جماعة تفضل غيرها بحسب عنصرها الإنساني وخلقها الأول"[4].

فما أحوجنا اليوم – في عالم يعيش التطاحنات والتناقضات – إلى الرجوع إلى هذه الوثائق لاستلهام النموذج الحضاري الإنساني للتعايش المشترك.

ونظرا لأهمية هذه الوثائق في التأصيل لمعالم الوحدة الوطنية اخترت أن يكون البحث في هذا الموضوع موسوما ب: "**معالم الوحدة الوطنية من خلال وثيقة المدينة، دراسة تأصيلية تحليلية**".

ولعرض هذا الموضوع في قالب علمي ومنهجي رصين، وبغية تجلية وتمثل التصورات الواردة أعلاه، ارتأيت تقسيمه، بعد هذه المقدمة، إلى فصلين وخاتمة

[1]- أخرجه الترمذي: أبواب المناقب، باب في فضل مكة، حديث رقم 3926، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه,
[2]- نفسه: حديث رقم 3925، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.
[3]- محمد عمارة، الإسلام في مواجهة التحديات، ص 29.
[4]- أحمد قائد الشعيبي، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، ص 37-38.

الفصل الأول: المعالم التكوينية للوحدة الوطنية في وثيقة المدينة[5].

المعلم الأول: وحدة الأخوة الإنسانية

المعلم الثاني: وحدة الكرامة الإنسانية

المعلم الثالث: وحدة الخالق

المعلم الرابع: وحدة الوظيفة الكونية

الفصل الثاني: المعالم التشريعية للوحدة الوطنية في وثيقة المدينة.

المعلم الأول: حرية المعتقد واحترام الأديان

المعلم الثاني: الولاء للوطن وتحريم الخيانة

المعلم الثالث: توطيد المشترك الاجتماعي

المعلم الرابع: العدل في الحقوق والواجبات

خاتمة: تتضمن حوصلة لأفكار البحث وأهم النتائج المتوصل إليها.

الفصل الأول: المعالم التكوينية للوحدة الوطنية في وثيقة المدينة:

كما اقتضت إرادته تعالى التكوينية أن يكون الناس مختلفين في الألوان والألسنة والمدارك والأفهام، اقتضت أيضا أن يكونوا مشتركين في أصول أخرى تكون أسسا لفقه التعايش والتواصل بين الناس، ومصدرا للوحدة الوطنية في الإسلام، ليترجم ذلك النبي صلى الله عليه وسلم عمليا في وثيقة المدينة كأول دستور للدولة الإسلامية، ومن أهم تلكم المعالم المؤسسة للوحدة الوطنية:

المعلم الأول: وحدة أصل الإنسان:

فأول بند في هذه الوثيقة ينص على "**أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين**"(بند 25) فتُقرّ أن الناس على امتداد الزمان والمكان، منذ أن خُلق آدم وإلى قيام الساعة، وعلى اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم، واختلاف أديانهم وثقافاتهم وحضاراتهم، واختلاف أفكارهم وعقولهم ومداركهم، يرجعون إلى أصل واحد، ونفس واحدة، وهي حقيقة أقرها القرآن الكريم في أكثر من آية، منها قوله تعالى: {يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}[النساء:1]، وقوله عز من قائل: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}[الأنعام:98]، وقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}[الأعراف:189]، خلقها من نفس واحدة هي آدم، وخلق منها زوجها هي حواء، وبث

[5]- سأعتمد في توثيق بنود الوثيقة على ما نقله محمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي، في "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة"، ص 59 وما بعدها.

منهما رجالا كثيرا ونساء، فانتشروا في الأرض فتكونت منهم أسر، ثم شعوب وقبائل، ثم دول وأمم، قال تعالى: {يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات:13]. وأكدت السنة هذا الأصل في قوله صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى"[6].

وقد أثبتت الدراسات العلمية حول الجينات البشرية وعلاقتها بالعرق واللون، وهي دراسة أجراها مجموعة من علماء جامعة هوارد في واشنطن، "أن كل إنسان يشارك أي إنسان آخر ب 99.9 في المائة من الحامض النووي، الذي هو المادة الجينية للإنسان، وأن ما يتبقى من تلك النسبة ضئيل جدا يختلف بين الأشخاص من العرق نفسه أكثر من اختلافه بين عموم البشر، ولذا فمن المستحيل التعرف على عرق الشخص من خلال دراسة جيناته فقط، وتدحض هذه النتائج نظريات التفوق العرقي لجنس على آخر، أو النظريات التي تربط بين الذكاء أو الجريمة وبين أعراق محددة"[7].

ومن ثمّ كان الوعي بوحدة الأصل والنشأة طريقا لبناء الوحدة الوطنية والمشترك الإنساني، ويبنى على هذا الأصل:

- **التعامل على أساس الأخوة الإنسانية:** فالأخوة في الإسلام لا تنحصر في أخوة الدين فقط. والروابط بين الناس لا تنحصر في الرابطة الدينية، وإن كانت من أقواها. فبالإضافة إلى أخوة الدين، هناك الأخوة الوطنية، والأخوة الإنسانية التي عبّر بها الأنبياء لأقوامهم، حتى بعد تكذيبهم وكفرهم برسالاتهم، ومن ذلك قوله تعالى: { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}[الشعراء:105-107]، فأثبت أخوة نوح لهم مع أنهم كذبوه. ومثل ذلك قوله تعالى: { كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ}[الشعراء:123-124]، وقوله تعالى: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ}[الشعراء:141-142]، وقوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161)}[الشعراء:160-161]، فدلت هذه الآيات بوضوح أن من الأخوة ما يبنى على اعتبارات أخرى غير الاعتبار الديني، ومنها الأخوة الوطنية، ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة"[8]. فيجب أن تكون هذه الأخوة معضدا لأركان الدولة وحب الوطن.

[6]- أخرجه الإمام أحمد في المسند، حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث 23489، 474/38، قال المحقق: إسناده صحيح.
[7]- راغب السرجاني، المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، ص 468.
[8]- أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، حديث رقم 1508.

- **صلة الرحم الآدمية:** فمن مقتضيات هذه الأخوة صلة الرحم الإنسانية بين الإخوة، والتعارف بينهم، كما قرره القرآن في قوله تعالى:{ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَساءلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ}[النساء: 1] ، وقوله: {ياأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ}[الحجرات:13]. ومن صلة الرحم الإنسانية: البر بالمخالف والقسط إليه كما أقرته الوثيقة "**وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم**"**(بند 37)**، وهي ترجمة عملية لقول الله تعالى: { لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ المقسطين}[الممتحنة:8]، وهي من الآيات المؤسسة للعلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم.
- **نبذ التمييز العنصري:** فمادامت الإنسانية كلها من أب واحد وأم واحدة (الناس بنو آدم، وآدم من تراب)[9]، وأنه (لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى)[10]، فلا مجال للتمييز العرقي والتعالي على الآخرين، والحط من شأنهم، والنظر إلى الناس على أن منهم عرق أعلى من عرق. وقد أثبتت الدراسات العلمية، التي أشرنا إليها سابقا، حول الجينات البشرية أن الإنسانية تشترك في 99.9 في المائة من الحامض النووي، الذي هو المادة الجينية للإنسان، وأن ما يتبقى من تلك النسبة ضئيل جدا يختلف بين الأشخاص من العرق نفسه أكثر من اختلافه بين عموم البشر.

أما الإسلام فقد حسم الأمر منذ البداية عندما اعتبر الناس كلهم من أصل واحد، ونفس واحدة، فلا تفاخر بالأنساب والآباء، وبذلك وضع حدا لكل تمييز، قال تعالى: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات:13]، هذا في الوقت الذي نجد فيه كثيرا من الفلسفات تستعمل العرق كأساس للعنصرية المقيتة، وتقسم العالم إلى أعراق مختلفة؛ أعراق عليا، وأخرى دنيا. ولطالما زعمت بعض الشعوب أن لها امتيازات على سائر البشر، وأعطت لنفسها الحق في إهدار كرامة شعب آخر، والنزول به إلى أدنى سلم الأجناس، كما زعمت الفلسفة النازية حين جعلت الجنس الآري في قمة السيادة والتفوق، وانحدرت بغيره إلى مهاوي التحقير والانحطاط، مما أدى إلى الصدام واشتعال الحرب[11].

وهناك مدارس غربية قامت على أساس تمجيد الجنس الأبيض واحتقار السود مثلا، حتى إن البروفيسور أساني فاساسي يقول في كتابه عن إفريقيا: "إن الكثيرين في أوروبا يقولون صراحة أو تلميحا: إن أوروبا نجحت لأنها متفوقة بالسلالة، وإن مسؤولية الانحطاط في إفريقيا تقوم على التخلف الموروث لدى السلالة السوداء في إفريقيا". وإن هذا الرأي كان يقول به مفكرو عصر النور في أوروبا مثل: فولتير، وكانت،

[9]- أخرجه الترمذي، أبواب المناقب، باب بدون ترجمة، حديث رقم 3956، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
[10]- سبق تخريجه.
[11]- ينظر المشترك الإنساني نظرة جديدة للتقارب بين الشعوب للدكتور السرجاني ص 468-469. والمسلمون والآخر، حوار لا صدام للدكتور علي القريشي، منشورات إيسيسكو- 1428هـ/2007م، ص 65-66.

ورابيليه، لدرجة أن الفيلسوف "بيير كابان" قد اقترح قيام "مزارع آدمية" لتهجين الجنس الأسود، وبذلك "تصحح غلطة الطبيعة"[12].

- **التعاون والتعارف بين الإخوة في الإنسانية:** إذا كان اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل، والتباين في الألوان والألسنة، والأديان والثقافات، آية من آيات الله الكونية، فإن التعارف والتعاون المؤدي إلى التعايش المشترك مقصد وغاية شرعية، وضرورة أملتها الأخوة في الإنسانية، وظروف الاجتماع البشري، ووحدة الوطن، قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ}[الحجرات:13]. فهو تنوع من داخل الوحدة اقتضاه الاجتماع البشري وتبادل الحاجات والمصالح المشتركة، لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، لا يمكنه أن يعيش منعزلا عن غيره، ولا يمكنه أن يلبي جميع حاجاته لوحده، فهو بالضرورة في حاجة إلى غيره، يقول صاحب المنار: "خلق الله الإنسان أمة واحدة; أي: مرتبطا بعضه ببعض في المعاش، لا يسهل على أفراده أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلى الأجل الذي قدره الله لهم إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضا، ولا يمكن أن يستغني بعضهم عن بعض، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله، لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيته جميع ما يحتاج إليه، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته فيستعين بهم في بعض شأنه، كما يستعينون به في بعض شأنهم، وهذا الذي يعبرون عنه بقولهم: (الإنسان مدني بالطبع)، يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفي للوصول إلى جميع حاجاته، بل قدر له أن تكون منزلة أفراده من الجماعة منزلة العضو من البدن، لا يقوم البدن إلا بعمل الأعضاء"[13].

فالتعارف مقدمة للتعاون البناء المحقق للمصالح المشتركة في كل ضروب الخير والشر، جلبا ودفعا، قال الله تعالى: { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[المائدة:2] وذلك أن "بني آدم لا يمكن عيشهم إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم، ودفع مضرتهم، فاتفاقهم على ذلك هو التعاقد والتحالف... فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون على جلب المنفعة المشتركة، ودفع الضرر المشترك"[14]، فتشمل هذه المصالح مختلف المجالات؛ العلمية، والاقتصادية، والبيئية، والعمرانية، والأمنية وغيرها من المجالات المشتركة.

المعلم الثاني: وحدة الكرامة الإنسانية:

إذا كان الناس من أصل واحد، على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأعراقهم وأديانهم، فإن كرامتهم واحدة، متساوون فيها بلا تفاوت، وبلا منّة من أحد، فالله تعالى الذي خلق الإنسان كرّمه لمجرّد آدميته وإنسانيته،

[12]- نقلا عن: حقوق الإنسان والقضايا الكبرى الأستاذ كامل إسماعيل الشريف، بحث قدم في الندوة العالمية لحقوق الانسان في الاسلام المنعقدة في روما بإيطاليا بتاريخ: 1420/11/19هـ الموافق 2000/2/25م، نشر بمجلة مجمع الفقه الإسلامي (منشور في المكتبة الشاملة) ص 8.

[13]- - محمد رشيد رضا، تفسير المنار 225/2.

[14]- ابن تيمية، جامع الرسائل ، 307/2. وقاعدة في المحبة، ص 121.

بغض النظر عن دينه ولونه ولغته وعرقه، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[الإسراء:70]، وجسد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في موقف من أروع المواقف الإنسانية، كما يروي ذلك جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: مر بنا جنازة، فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم وقمنا به، فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، قال: «إذا رأيتم الجنازة، فقوموا»[15]، وفي رواية: فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفسا»[16]. فبيّن ألا فرق هناك بين المواطنين في الكرامة.

ومظاهر هذا التكريم الإلهي للإنسان كثيرة، منها:

- التكريم العقلي: لقد ميز الله تعالى الإنسان بالعقل عن غيره من المخلوقات، وجعله مناط التكليف، فإذا غاب رفع التكليف[17]، وهو أداة العلم والمعرفة، وبه يعقل الإنسان الحق من الباطل، والخير من الشر، وهو من المشترك الإنساني الذي يجب الاحتكام إليه، واستعماله كوسيلة للتواصل والحوار بين الناس، وخاصة بين أبناء الوطن الواحد، يقول الدكتور السرجاني: "فإذا كان العقل مشتركا بين جميع البشر، فإنه وسيلة مهمة للتواصل بين أبناء الشعوب جميعا؛ إذا ما احترمت الشعوب عقول الآخرين، وإن التاريخ خير شاهد على أن المسلمين كانوا يحترمون عقول الآخرين؛ فالحضارة الإسلامية لم تكن يوما من الأيام داعية إلى العزلة أو الانغلاق الفكري، بل فتحت أبوابها على مصراعيها للثقافات الأخرى.."[18].
- التكليف وأمانة الاستخلاف: فإذا كان الله تعالى قد حبا الإنسان بالعقل، فإنه جعله مناطا لتكليفه، فهو المخلوق الوحيد الذي اجتباه الله تعالى للقيام بمهمة الخلافة في الأرض وعمارتها بالخير، وتحقيق العبودية له، والقيام بالتكاليف الشرعية، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[الأحزاب:72]، وهي مهمة مختصة بالإنسان دون سواه، قال الراغب الأصفهاني: "والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

1 – عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: {وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}[هود:61]، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره.

[15]- أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي حديث رقم 1311. ومسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة حديث رقم 960.

[16]- أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي حديث رقم 1312. ومسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة حديث رقم 961.

[17]- أخرج الترمذي من حديث علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يشب، وعن المعتوه حتى يعقل". أخرجه في: أبواب الحدود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، حديث رقم 1423. وصححه الألباني.

[18]- المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب ص 348.

2 – وعبادته المذكورة في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[الذاريات:56]، وذلك هو الامتثال للباري – عز وجل – في أوامره ونواهيه.

3 – وخلافته المذكورة في قوله تعالى: {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}[الأعراف:129]، وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة. ومكارم الشريعة هي الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس، والحلم، والإحسان، والفضل، والقصد منها أن تبلغ إلى جنة المأوى، وجوار رب العزة تعالى"[19].

- **الحرية**، فلا تكتمل كرامة الإنسان إلا بالحرية، فالإنسان يولد حرا وينبغي أن يبقى حرا، ومن ثمّ فلا سلطة لأحد على أحد، ولا سيادة لأحد على أحد في هذا الوجود كما قال عمر رضي الله عنه: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"[20]، فالمظلوم المقهور لا يسلك في أذنه إلا صوت يبشره بالحرية والكرامة "إذ إن الكرامة هي أساس ومصدر حقوق الإنسان، والحرية هي المظهر الخارجي لهذه الكرامة، فلا كرامة للإنسان إلا بالحرية"[21]، وقد شارك الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة مع قريش في "حلف الفضول" "فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته"، وقال بعد البعثة "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"[22].

كيف لا والحرية من المقاصد التي تشترك الرسالات السماوية في حفظها[23]، فما أرسل الله الرسل، وما أنزل الكتب، إلا لتحرير الإنسان من عبودية غير الله، من الطواغيت والشهوات والأصنام وغيرها، إلى عبودية الله وحده، يلخص ذلك ما قاله ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم، قائد الفرس، لما سأله: ما جاء بكم؟ فقال: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"[24].

فالحرية إذن من المشترك الإنساني الذي تقدره وتقره كل الأديان، وجميع الحضارات، وكل الشعوب والأمم، منذ القدم وإلى يومنا هذا، ومن أجلها ناضلت الشعوب وقاومت الاستعمار بشتى أنواعه، ولازالت الشعوب المستعمرة تقاوم وتناضل.

[19]- الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق الدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي، ص 82-83.
[20]- القصة كاملة عند: ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 195. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، 323/2.
[21]- المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب للدكتور السرجاني ص 391.
[22]- ابن هشام، السيرة النبوية 133/1-134.
[23]- ينظر المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب ص 395 وما بعدها.
[24]- ينظر القصة كاملة عند ابن كثير، البداية والنهاية، 46/7-47. وابن جرير، تاريخ الطبري 520/3.

المعلم الثالث: وحدة الخالق:

إذا كانت الإنسانية كلها ترجع إلى أصل واحد وأب واحد، فإنها ترجع في النشأة والخلق إلى خالق واحد ورب واحد، والأصلان معا تضمنتهما نفس الآيات المؤسسة لوحدة الخلق، لأن وحدة الخلق تستلزم بالضرورة وحدة الخالق، قال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها}[النساء:1]، وقال سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}[الأنعام:98]، وقال أيضا: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}[الأعراف:189]، وقال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[التغابن:2]، فالناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، يرجعون إلى خالق واحد، ومدبر واحد، خالق السماوات والأرض والكون كله، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}[لقمان:25]، ومن ثم وجب أن يكون هو وحده سبحانه المصدر الذي تتلقى عنه الإنسانية تصوراتها ومناهجها في الحياة، وأن يكون وحده المعبود دون سواه، يقول سيد قطب: "ولأن الله هو وحده الإله، وهو وحده الخالق، وهو وحده المالك.. فهو وحده الذي يشرع، هو وحده الذي يحلل ويحرم، وهو وحده الذي يطاع فيما يشرع وفيما يحرم أو يحلل. كما أنه هو وحده الذي يُعبد، وهو وحده الذي يتوجه إليه العباد بالشعائر"[25].

وأود في هذا السياق أن أستشهد بكلام جميل للمطران الزغبي قاله في مداخلة بين يدي محاضرة ألقاها آية الله محمد علي التسخيري في موضوع "الحوار بين الإسلام والمسيحية، الموانع والحلول" بجامعة الحكمة المسيحية بلبنان، جاء فيها: "أخي قبل أن أكون مسيحيا، وأنا بالطبيعة أخوك قبل أن تكون مسلما، فكل منا ينتمي شاء أم أبى إلى ذينك الأبوين الأولين، وإلى الخالق لا إله إلا هو. إن الانتماء الديني هو الذي طرأ على ذات الإنسان، وليست الذات هي الطارئة على الانتماء الديني، أنت أخي في الخلق والخالق، وفي أبوينا الأولين، أنا أحبك لأجل من خلقني وخلقك.."[26]. وهذا يدفعنا للحديث عن وظيفة الخلق.

المعلم الرابع: وحدة الوظيفة:

فالإنسانية كلها، كما الكون ومن فيه من المخلوقات كلها، متساوون في الخضوع لخالقها سبحانه، خاضعون للقوانين والنواميس التي تنتظمه، وليس لأحد أن يخرج عنه، فالكل فوق أرضه، وتحت سمائه، ويسبح بحمده، {تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً}[الإسراء:44]، وهذا تعبير كما قال سيد قطب: "تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنفض روحا حية تسبح الله. فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال. وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة،

[25]- سيد قطب، في ظلال القرآن 826/2.
[26]- محمد علي التسخيري، الحوار مع الذات والآخر ص 120.

كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء، ومعها سكان السماء، كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه"[27]، {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} يسبح بطريقته ولغته {وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} أي: "لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم"[28].

وبهذا المعنى فالناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، يخضعون لوحدة العبودية الاضطرارية بمقتضى الإرادة الإلهية، والشرائع إنما جاءت لتنقلهم من العبادة الاضطرارية إلى العبادة الاختيارية.

فتلكم هي أهم المعالم التكوينية المؤسسة للوحدة الوطنية، فما المعالم التشريعية المساهمة في ذلك.

الفصل الثاني: المعالم التشريعية للوحدة الوطنية في وثيقة المدينة

لم تكتف وثيقة المدينة بتأسيس المشترك الإنساني وبناء الوحدة الوطنية على الأسس الفطرية التي فطر الله الناس عليها، كما بيناه في الفصل السابق، بل أكدتها بأسس تشريعية مؤسسة ومؤصلة لفقه التعايش الإنساني، وهي قواعد جامعة، وقيم مشتركة لا يكاد يكون فيها اختلاف بين المنصفين من الناس، ومن أهمها:

المعلم الأول: إقرار حرية المعتقد واحترام الأديان

ذكرنا سابقا أن كرامة الإنسان لا تكتمل إلا بالحرية، ومن الحريات التي كفلها الإسلام حرية المعتقد، حيث منع الإكراه في الدين، ولم يجعله سبيلا لإرغام الناس على اتباعه، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[البقرة:256]، وهي آية محكمة غير منسوخة، كما يدعي دعاة العنف، قال ابن تيمية: "وهذا نص عام أنّا لا نكره أحدا على الدين، فلو كان الكافر يُقتل حتى يُسلم لكان هذا أعظم الإكراه على الدين"[29]. ثم قال إن "جمهور السلف والخلف على أن هذه الآية ليست مخصوصة ولا منسوخة، بل يقولون: إنا لا نكره أحدا على الإسلام، وإنما نقاتل من حاربنا، فإن أسلم عصم دمه وماله، ولو لم يكن مَنْ فعل القتال لم نقتله، ولم نكرهه على الإسلام"[30]. بل إن من غايات الجهاد في الإسلام: الدفاع عن حرية العقيدة وحماية الأديان من الازدراء كما هو واضح في قوله سبحانه: { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[الحج:40]. وأيضا فإن الإكراه يؤدي إلى شيوع النفاق وتعششه وسط المسلمين، وهذا ما لا يريده الإسلام، لأن الإيمان قناعة عقلية وتسليم قلبي، ولا سلطان على القلوب إلا لخالقها، قال ابن كثير في تفسير الآية: {لا إكراه في الدين} "أي: لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن

[27]- في ظلال القرآن 4/ 2230-2231.
[28]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 79/5.
[29]- ابن تيمية، قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم، ص 121.
[30]- نفسه ص 123-124.

يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا"[31].

ولقد كانت وثيقة المدينة واضحة في هذا الشأن عندما أقرّت بأن "**لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم**"**(بند 25)**، فتكون بذلك قد رسمت "المعالم الرئيسية لكيفية التعامل والتعاقد والشراكة والتكامل والتعارف والتوافق مع الشركاء في الوطن الواحد، وهو اعتراف صريح مباشر بإقرار التنوع العقدي والفكري والقومي والعرقي في الإسلام، ودليل قوي على الفضاء الواسع للقيم الإسلامية وإنسانيتها، وهو فضاء لا يحدّه الزمان والمكان"[32]. بل بلغ التسامح الديني بالنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة إلى درجة السماح لنصارى نجران بأن يمارسوا شعائرهم وصلاتهم داخل المسجد النبوي، كما ذكر ذلك ابن القيم والمقريزي وغيرهما أنه "لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلوا عليه مسجده بعد العصر فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم"[33]. فأي حرية وأي تسامح أكثر من هذا، وكل ذلك في إطار وحدة الأمة.

ومادام أن أكثر أهل المدينة كانوا يدينون بدين سماوي، فإن الدين يعد من المشترك الإنساني الذي يمكن أن يسهم في توطيد العلاقة بين أهل الوطن الواحد، فالدين الذي ارتضاه الله تعالى للإنسانية وأرسل به رسله هو دين واحد هو دين الإسلام، وهي حقيقة أقرها القرآن الكريم في أكثر من آية، منها قوله تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}[آل عمران:19]، وقوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}[الشورى:13]، إلا أن هذا الدين نزل متدرجا في شكل شرائع تناسب القوم الذين نزلت فيهم، وكانت آخرها شريعة الإسلام[34]، ولذلك كان ابن تيمية رحمه الله يميز بين الإسلام العام وسماه "الدين المشترك"، والإسلام الخاص بنا، ففي تعليقه على الآية السابقة قال: "والدين الذي اتفقوا عليه: هو الأصول، فتضمن الكلام أشياء: أحدها: أنه شرع لنا الدين المشترك؛ وهو الإسلام والإيمان العام. والدين المختص بنا؛ وهو الإسلام والإيمان الخاص.."[35]. وفي موضع آخر قال: "الدين المشترك؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء"[36]. ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المشترك الديني بين الأنبياء في قوله: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا

[31]- تفسير القرآن العظيم 682/1.
[32]- المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، ص 613.
[33]- ابن قيم، زاد المعاد في هدي خير العباد 549/3 . وتقي الدين المقريزي، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، 65/14.
[34]- قال تعالى: { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: 48].
[35]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 14/1.
[36]- نفسه 636/7.

والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات[37]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[38]، وهذا واضح في دعوات الرسل والأنبياء، فقد كان شعارهم دائما "يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"، {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[الأعراف:65]، {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[الأعراف:59]، {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[الأعراف:73]، {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[الأعراف:85]، وهكذا كل الأنبياء يشكلون بنيانا واحدا، تكمل لبنات بعضهم بعضها، حتى قال خاتمهم صلى الله عليه وسلم: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[39].

المعلم الثاني: إقرار الولاء للوطن وتحريم خيانته

إن الانتماء لنفس الوطن يتطلب التعاون بين كل أفراده ومكوناته، والقيام بحمايته من كل ما يُهَدِّد أمنَه واستقراره، لأن المحافظة على الأمن والسلم في الوطن مهمة الجميع، ومسؤولية مشتركة[40]، ومن ثم كان على اليهود، إلى جانب المسلمين، أن يُسهموا جميعا في الدفاع عن المدينة من خلال توفير الدعم المادي واللوجستيكي للمقاتلين، وأن يكون ولاؤهم للوطن لا لأعدائه، وقد نصّت الوثيقة صراحة على أن الدفاع عن المدينة مهمة مشتركة بين كل المواطنين، يهود ومسلمين، وفي أكثر من بند، فنصّت على أن: "**اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين**" **(بند 24 و38)**، وأن "**بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم**"**(بند 37)**، "**وأن بينهم النصر على من دهم يثرب**"**(بند 44)**، "**وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه**"**(بند 45)**، "**وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم**"**(بند 16)**. وهي بنود تُجمع على أن التعايش المشترك يقتضي التناصح والتكافل والتناصر المشترك، في الرخاء والشدة، في السلم والحرب.

وقد ذهب أبو عبيد إلى أن اليهود كانوا يشاركون في الغزو مع المسلمين ويغنمون معهم، فقال: "ونرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم من النفقة، ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم"[41]، ونقل عن الزهري أنه قال: «كان اليهود يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسهم لهم»[42].

---

[37]- إخوة لعلات: أي: الإخوة لأب من أمهات شتى. في إشارة إلى أن أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.
[38]- أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها}[مريم:16]، حديث رقم 3443.
[39]- أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم حديث رقم 3535. ومسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين حديث رقم 2286.
[40]- ينظر جاسم محمد راشد العيساوي، الوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها، ص 82.
[41]- أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، كتاب الأموال، ص 260.
[42]- نفسه ص 266.

وإلى جانب الدعم المادي، يجب كذلك معاداة أعداء الوطن، والكف عن التعامل مع من يريد الإضرار به أو يُلحق الأذى بأهله، وقد اشترط الرسول صلى الله عليه وسلم في موادعته هذه لليهود أن لا يعينوا عليه أحدا، وأن لا يتعاملوا مع عدو كما هو واضح في البند 43 "**وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها**"، إلا أن اليهود نقضوا العهد وخانو الوطن بتحالفهم مع العدو، فكان ذلك سببا في إجلائهم ومقاتلتهم، كما يظهر ذلك من خلال ملابسات وأسباب الحروب التي وقعت بين المسلمين واليهود، يقول الإمام الطبري: "وكان – أي الرسول صلى الله عليه وسلم – قد وادع حين قدم المدينة يهودها على أن لا يعينوا عليه أحدا، وإنه إن دهمه بها عدو نصروه، فلما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل ببدر من مشركي قريش، أظهروا له الحسد والبغي، وقالوا: لم يلق محمد من يحسن القتال، ولو لقينا لاقى عندنا قتالا لا يشبهه قتال أحد، وأظهروا نقض العهد"[43]، فكان نقض العهد وخيانة الوطن والتآمر عليه مما يستوجب العقاب.

المعلم الثالث: توطيد المشترك الاجتماعي:

لكي يعيش الناس، مسلمون وغير مسلمين، في وطن واحد، تربطهم أواصر المحبة والأخوة الإنسانية، والتناصر والتعاضد والتضامن، ويجمعهم الشعور بالانتماء إلى مجتمع واحد، ووطن واحد، وحتى لا يشعر غير المسلم وكأنه غريب في بلده، منعزل عن محيطه، شرّع الإسلام مجموعة من القيم الإنسانية، والقواعد الاجتماعية المحققة للتواصل الاجتماعي بين الجميع، ومنها:

أولا: إباحة مؤاكلة غير المسلمين: إن مما يفرضه التواصل الاجتماعي بين الناس في المجتمع الواحد، تبادل الزيارات، وحضور المناسبات الاجتماعية، تهنئة في الأفراح والمسرات، ومواساة في المآتم والأحزان، وفي هذا يقول سيد قطب: "إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفوين معزولين– أو منبوذين– إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة والمجاملة والخلطة. فيجعل طعامهم حلا للمسلمين، وطعام المسلمين حلا لهم كذلك. ليتم التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة"[44].

وقد أقر القرآن الكريم هذا السلوك الراقي في قوله تعالى: { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ}[المائدة:5]، وأكدته السنة النبوية، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأكل طعامهم ويقبل هداياهم، فقد روي عن أنس "أن يهوديا دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى خبز شعير وإهالة سنخة، فأجابه"[45].

وأخرج ابن أبي شيبة عدة أحاديث في قبول هدايا أهل الكتاب، نذكر بعضها:

[43]- تاريخ الطبري، 479/2.
[44]- في ظلال القرآن 848/2.
[45]- أخرجه أحمد، مسند أنس بن مالك، حديث رقم 13201، 424/20، وقال المحقق إسناده صحيح على شرط مسلم.

عن أنس بن مالك قال: «أهدى الأُكَيْدِرُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم جرة من مَنٍّ فجعل يقسمها بيننا»[46].

وعن عامر أن دحية الكلبي «أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم جبة، وخفين فقبلهما، ولبسهما حتى خرقهما»[47].

وعن سعد بن إبراهيم أن المقوقس «أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم هدية فقبلها»[48].

وأخرج الحاكم عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه قال: «أهدى ملك الهند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جرة فيها زنجبيل فأطعم أصحابه قطعة قطعة وأطعمني منها قطعة»[49].

وهذا من شأنه فتح جسور التواد والتعاطف والتراحم بين المسلمين وغيرهم، يقول شيخنا الدكتور محمد رفيع حفظه الله: "ولا شك أن زيارة المخالف في داره ومواصلته ومؤاكلته ومشاربته وقبول هديته مما يزيل الكثير من الحواجز النفسية بين المخالفين، ويؤسس لتعاون اجتماعي راق مع المخالف الديني"[50].

ثانيا: مصاهرة أهل الكتاب: كما أجاز الإسلام مؤاكلة أهل الكتاب، أجاز مصاهرتهم، والزواج من محصنات نسائهم كالزواج بمحصنات المسلمين، كما يقرر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}[المائدة:5]، يقول الشيخ يوسف القرضاوي: "ويبيح الإسلام مؤاكلة أهل الكتاب، والأكل من ذبائحهم، كما أباح مصاهرتهم والتزوج من نسائهم المحصنات العفيفات، مع ما قرره القرآن من قيام الحياة الزوجية على المودة والرحمة في قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}[الروم:21]. وهذا في الواقع تسامح كبير من الإسلام، حيث أباح للمسلم أن تكون ربة بيته، وشريكة حياته وأم أولاده غير مسلمة، وأن يكون أخوال أولاده وخالاتهم من غير المسلمين"[51].

فأن يُقرن الله تعالى ذكر المحصنات الكتابيات مع المحصنات المسلمات، فهذا قمة التسامح والرغبة في الاندماج الاجتماعي قد لا تجده حتى بين الفرق المسيحية نفسها، "فإن الكاثوليكي المسيحي ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية، أو البروتستانتية، أو المارونية المسيحية. ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة! وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية، ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة، التي تظلها راية المجتمع الإسلامي"[52].

---

[46]- أخرجه ابن أبي شيبة، كتاب الجهاد، باب من أسلم على شيء فهو له، حديث رقم 33442.
[47]- نفسه رقم 33446.
[48]- نفسه رقم 33447.
[49]- أخرجه الحاكم، كتاب الأطعمة رقم 7190.
[50]- الدكتور محماد بن محمد رفيع، النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف ص 57-58.
[51]- الدكتور يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 6.
[52]- في ظلال القرآن 848/2.

ثالثا: صلة رحمهم: إذا أباح الإسلام مناكحة غير المسلمين، فإنه بالضرورة تنشأ عن ذلك رحم بينهما، فالحياة بين الزوجين يجب أن تقوم على المودة والرحمة كما قال تعالى: {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}[الروم:21]، وتنشأ عنها علاقة الأبناء – المسلمين – بأمهم – غير المسلمة– فيترتب عليها بر الوالدين بالمعروف، قال تعالى:{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}[لقمان:14–15]، وقد روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قَدِمَت عليّ أمي، وهي مشركة، في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك»[53]. فكان ذلك سببا في نزول هذه الآية: { لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة:8]، فأدخلتها منزلها وقبلت منها هداياها[54].

رابعا: عيادة مرضاهم: من صور المواساة ومقتضيات البر والإقساط إلى المخالف في الدين زيارته إذا مرض، فقد روى البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه: أن غلاما ليهود كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقال: «أسلم» فأسلم[55]. وفي رواية أبي داود: فقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»[56]. إنه القلب الرحيم وكفى.

وقد عقد ابن القيم رحمه الله فصلا خاصا "في عيادة أهل الكتاب" ذكر فيه أقوال كثير من العلماء الذين رغّبوا في زيارة المرضى من أهل الكتاب، خاصة إذا كان يرجى إسلامهم[57].

ولم يقف الأمر عند حد زيارة المرضى، بل تعداه إلى تشييع الموتى، فقد روى عبد الرزاق وابن أبي شيبة عن الشعبي قال: «ماتت أم الحارث بن أبي ربيعة، وكانت نصرانية، فشيعها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم»[58]. وكان عطاء يقول: «إن كانت قرابة قريبة بين مسلم وكافر، فليعد المسلم الكافر»[59]، وقال: «إن كانت قرابة قريبة بين مسلم وكافر فليتبع جنازته»[60].

خامسا: الدعاء لهم بالهداية: لقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للناس جميعا، ولذلك كان يرجو الهداية للجميع، ويدعو لغير المسلمين بالهداية، لا أن يدعو عليهم، كما هو حال بعض الخطباء والدعاة

[53]- أخرجه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين حديث رقم 2620.
[54]- محمد بن علي الواحدي النيسابوري، أسباب نزول القرآن، ص 424.
[55]- أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة المشرك حديث رقم 5657.
[56]- أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في عيادة الذمي حديث رقم 3095.
[57]- ينظر ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، 427/1.
[58]- أخرجه عبد الرزاق، كتاب أهل الكتاب، اتباع المسلم جنازة الكافر حديث رقم 9926. وابن أبي شيبة، كتاب الجنائز، في الرجل يموت له القرابة المشرك يحضره أم لا؟ حديث رقم 11842.
[59]- أخرجه عبد الرزاق، كتاب أهل الكتاب، اتباع المسلم جنازة الكافر حديث رقم 9921.
[60]- نفسه رقم 9925.

الذين يدعون على الكفار بأن يُجمِّد الله الدم في عروقهم، فقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوسا قد كفرت وأبت فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس – ظنا بأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما رفع يديه للدعاء عليها – فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم اهد دوسا وائت بهم»[61].

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا لأم أبي هريرة رضي الله عنه قبل إسلامها فأسلمت، فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: "كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، قلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اهد أم أبي هريرة»، فخرجت مستبشرا بدعوة نبي الله صلى الله عليه وسلم، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فسَمِعَتْ أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا"[62].

سادسا: الإنفاق عليهم ومواساتهم: لقد رغّب القرآن الكريم في البر والإقساط إلى المخالفين الذين لم يقاتلوننا في الدين ولم يعينوا على قتالنا، فقال سبحانه: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المقسطين}[الممتحنة:8].

ومن البر والإقساط إليهم مواساتهم والتضامن معهم والانفاق عليهم، خاصة في حالات الحاجة والعجز، فإن ذلك من شأنه أن يسهم في التقارب بين الفرقاء، لأن القلوب مجبولة على حب من يحسن إليها، ولذلك لما تساءل بعض الصحابة عن مشروعية الإنفاق على ذويهم وجيرانهم من المشركين، جاء الجواب من السماء: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[البقرة:272][63]. ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتصدق على غير المسلمين كما يتصدق على المسلمين، فقد روى أبو عبيد عن سعيد بن المسيب: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدق بصدقة على أهل بيت من اليهود، فهي تُجْرَى عليهم"[64]. وعن يزيد بن

[61]- أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل غفار، وأسلم، وجهينة، وأشجع، ومزينة، وتميم، ودوس، وطيئ، حديث رقم 2524.
[62]- أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه حديث رقم 2491.
[63]- ينظر ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 5/587-588.
[64]- أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، كتاب الأموال، كتاب الصدقة وأحكامها وسننها، باب إعطاء أهل الذمة من الصدقة، وما يجزي من ذلك مما لا يجزي حديث رقم 1993.

الهاد "أن صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم تصدقت على ذوي قرابة لها، فهما يهوديان، فبيع ذلك بثلاثين ألفا"[65]. وعن ابن جريج، في قوله تبارك وتعالى: { وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}[الإنسان:8] قال: «لم يكن الأسير يومئذ إلا من المشركين»[66].

وروي أن أمير المؤمنين عمر مرّ بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: «ما أنصفناك، أن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك» قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه[67].

وروى ابن أبي شيبة عن جابر بن زيد، قال: سئل عن الصدقة في من توضع؟ فقال: في أهل المسكنة من المسلمين، وأهل ذمتهم، وقال: وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقسم في أهل الذمة من الصدقة والخمس»[68]. وروى عن أبي ميسرة، أنه كان «يعطي الرهبان من صدقة الفطر»[69].

فهذه النصوص وغيرها تدل على تسامح الإسلام، ومراعاته للأخوة الإنسانية والوطنية التي تربط المسلمين بغيرهم، خاصة إذا كان يجمعهم وطن واحد.

سابعا: حسن مجاورتهم: إن مما يزيد الألفة ويحقق التقارب والاندماج بين المسلمين وغيرهم، ويسهم في وحدة الوطن وتوطيد العلاقة بين المواطنين: حسن الجوار، وهو ما أكدت عليه وثيقة المدينة في البند 40 حيث جاء فيه: "**وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم**". وقد رغّب القرآن الكريم في هذا الخلق الرفيع في قوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ}[النساء:36]، فقد حمل بعض العلماء "الجار الجنب" على أنه الجار اليهودي أو النصراني، وحمله الطبري على "الغريب البعيد، مسلما كان أو مشركا، يهوديا كان أو نصرانيا"[70].

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الجيران ثلاثة، فمنهم من له ثلاث حقوق، ومنهم من له حقان، ومنهم من له حق واحد، فأما الذي له ثلاث حقوق فالجار المسلم القريب، له حق الإسلام وحق الجوار وحق القرابة، وأما الذي له حقان فالجار المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار الكافر، له حق الجوار»[71].

---

[65]- نفسه حديث رقم 1994.
[66]- نفسه حديث رقم 1996.
[67]- نفسه: كتاب سنن الفيء، والخمس، والصدقة، باب اجتباء الجزية والخراج، وما يؤمر به من الرفق بأهلها وينهى عنه من العنف عليهم فيها حديث رقم 119.
[68]- أخرجه ابن أبي شيبة، كتاب الزكاة، ما قالوا في الصدقة في غير أهل الإسلام حديث رقم 10409.
[69]- نفسه حديث رقم 10403.
[70]- جامع البيان 10/7.
[71]- أخرجه البيهقي، شعب الايمان، إكرام الجار، حديث رقم 9113.

ومن حسن الجوار: المواساة، وكف الأذى، وحسن العشرة، ومن هذا القبيل ما روي عن مجاهد أن عبد الله بن عمرو ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[72].

ثامنا: معاملتهم في التجارة: فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعامل مع غير المسلمين في المعاملات المالية من بيع وشراء، وأخذ وعطاء، ولا يرى مانعا من ذلك، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعا من شعير»[73]. وفي حديث آخر قالت: «اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهودي طعاما بنسيئة، ورهنه درعه»[74]. وقد كان في وسعه أن يستقرض من أصحابه، وما كانوا لِيَضِنُّوا عليه بشيء، ولكنه أراد أن يُعَلِّم أمته كما قال الشيخ يوسف القرضاوي[75].

ونختم أساس المشترك الاجتماعي بهذه الكلمات الجامعة للفقيه المالكي شهاب الدين القرافي رحمه الله في معاملة غير المسلمين والبر بهم، ومن ذلك: "الرفق بضعيفهم، وسد خلّة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفا منا بهم لا خوفا وتعظيما، والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم"[76].

المعلم الرابع: العدل في الحقوق والواجبات

إذا كان الناس متساوون في أصل الكرامة الإنسانية كما أشرنا سابقا، فإن وثيقة المدينة جاءت لإقرار هذه الحقيقة في دولة المدينة الوليدة، فألغت كل ما كان معروفا من مظاهر التمييز والعنصرية، وأعطت لليهود من الحقوق والواجبات ما أعطت للمسلمين، فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وتظهر أهمية هذه الوثيقة في تحقيق العدل والمساواة أكثر إذا علمنا أن المدينة كانت تتكون من إثنيات وقوميات وأديان وطوائف مختلفة، لها تاريخ من الحروب والصراعات.

ومن مظاهر هذا العدل في وثيقة المدينة:

---

[72]- أخرجه الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار، حديث رقم 1943. وصححه الألباني في التعليق على سنن الترمذي.

[73]- أخرجه البخاري في: كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم، والقميص في الحرب رقم 2916.

[74]- أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب شراء الإمام الحوائج بنفسه، حديث رقم 2096. ومسلم، كتاب المساقاة، باب الرهن وجوازه في الحضر كالسفر، حديث رقم 1603.

[75]- ينظر غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص 51.

[76]- شهاب الدين القرافي، الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق، 15/3.

- **إقرار المساواة في الدين**، حيث نصّت على أن "**لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم**" **(بند 25)**، فالجميع يتمتع بحرية العقيدة، وفي ممارسة شعائره الدينية، وليس لأحد أن يكره غيره على تغيير دينه أو منعه من ممارسة طقوسه وعباداته، وقد سبق الحديث عن هذا المظهر عند حديثنا عن إقرار حرية المعتقد واحترام الأديان.
- **إقرار المساواة في النفقة**، حيث نصت أن "**على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم**" **(بند 37)**، وأن "**اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين**" **(بند 24 و38)**، فلا فرق بين المواطنين في دفع نفقات الدولة، من ضرائب وغيرها، لحمايتها والدفاع عنه، فالمال هو عصب الدولة، وعلى الجميع أن يؤدي واجبه بلا تمييز.
- **إقرار المساواة في الخضوع للقانون**، حيث نصت على "**أن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم**" **(بند 13)** وأنه "**من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه**"**(بند 21)**، وأنه "**لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يُؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل**"**(بند 22)**، وأنه "**لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم**" **(بند 37)**، وإنه "**لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم**"**(بند 47)**.

فهذه البنود كلها تنص على أن القانون فوق الجميع، وأنه يطبق على الجميع، وأنه لا فرق بين المواطنين على أي أساس عرقي، أو ديني، أو لغوي، أو غيرها من أنواع التمييز التي كانت سائدة في الجاهلية. كما نصت، هذه البنود، على مبدإ شخصنة العقوبة، حيث لا تنال إلا الجاني وحده[77]، لا كما كان معمولا به قبل الإسلام، حيث "لم يكن الإنسان مسؤولا جنائيا عن أعماله فقط، وإنما كان يسأل عن عمل غيره ولو لم يكن عالما بعمل هذا الغير، ولو لم يكن له سلطان فعلي على هذا الغير، فكانت العقوبة تتعدى المجرم إلى أهله وأصدقائه، وتصيبهم كما تصيبه، وهو وحده الجاني وهم البراء من جنايته"[78].

فالعدل يقتضي شخصنة العقوبات، وهذا مبدأ أصيل في الشريعة الإسلامية، أقره القرآن الكريم في كثير من الآيات، كقوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}[الإسراء:15]، وقوله: { وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا}[الأنعام:164]، وأكدته السنة في أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه)[79].

[77]- ينظر الوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها، ص 140- 141.
[78]- عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، 381/1.
[79]- أخرجه النسائي في السنن الصغرى، كتاب تحريم الدم، باب تحريم القتل، حديث رقم 4128. صححه الألباني.

ومن جانب آخر ليس لأحد أن يعترض على تطبيق القانون على عشيرته ومعارفه، فالقصاص يطال المجرم مهما كان وضعه الاجتماعي، ومهما كان نسبه وعشيرته، فلا فرق بين شريف ووضيع، ولا فقير وغني، فالكل أمام القانون سواء. وليس لأحد أن يشفع في مجرم استحق العقاب، كما كان معمولا به قبل الإسلام، ويكفي أن نشير هنا إلى ما رواه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها، أن قريشا أهمهم أمر المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ثم قالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِب رسول صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أسامة، أتشفع في حد من حدود الله؟!"، ثم قام فاختطب، فقال: "إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"[80]، إنها العدالة في تطبيق القانون، فما أحوجنا إليها اليوم في عالم يكيل بمكيالين.

خاتمة:

في ختام هذا البحث، وبعد هذه الجولة في رحاب أول دستور للدولة الإسلامية، خلصت إلى ما يلي:

- أن حب الوطن من الأمور الفطرية التي جُبل عليها الإنسان، وقد أقر الإسلام هذا الحب وأكده، بل وعدّ الدفاع عنه جهادا في سبيل الله.

- أن الدولة الإسلامية في المدينة كان لها قدم السبق في وضع أول دستور في العالم، يتأسس على روح الأخوة الإنسانية والمشترك الإنساني، بعيدا عن الصراعات والعصبيات القبلية والدينية والإثنية التي كانت سائدة قبل الإسلام.
- أن وثيقة المدينة – دستور الدولة – وضعت معالم واضحة للوحدة الوطنية، نظمت علاقة المواطنين بالوطن، وعلاقتهم ببعضهم، منها ما هو جبلي تكويني كوحدة الأصل الإنساني، ووحدة كرامته، وظيفته الكونية، ثم وحدة خالقه. ومنها ما هو تشريعي يؤسس لحرية المعتقد واحترام الأديان، وتربية الولاء للوطن وتحريم خيانته، وتوطيد المشترك الاجتماعي بين مكوناته، ثم العدل في الحقوق والواجبات بين مواطنيه.
- لقد رسمت هذه الوثيقة، بحق، المعالم الكبرى لكيفية التعامل والتعاون مع الشركاء في الوطن، فقد اعترفت صراحة بوجود التنوع العقدي والفكري والقومي والعرقي في الإسلام، وهي دليل على سعة الإسلام وتسامحه.
- وفي الأخير نقول ما أحوجنا اليوم إلى الرجوع إلى هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق المشابهة؛ ككتابه صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نجران، والعهدة العمرية، وحلف الفضول، ودراستها دراسة وافية تمكننا من استلهام النموذج الحضاري الإنساني للتعايش المشترك، بعيدا عن التغني بالأمجاد والأجداد.

[80]- أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم 3475. ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، حديث رقم 1688.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والراجع:

- أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت:468هـ)، أسباب نزول القرآن، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، ط 2/ 1412هـ- 1992م.
- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم = صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين المقريزي (ت:845هـ)، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط 1/ 1420هـ- 1999م.
- أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم، حققها ودرسها دراسة مقارنة الدكتور عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل أحمد، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1425/1هـ-2004م.
- أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: 728هـ)، جامع الرسائل، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، دار العطاء – الرياض، ط 1/ 1422هـ - 2001م، 307/2.
- أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: 728هـ)، قاعدة في المحبة، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر.
- أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: 728هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، طبعة: 1416هـ/1995م.
- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي الشهير بالقرافي (ت: 684هـ)، الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق، عالم الكتب، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط 1/ 1408هـ - 1988م.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير البصري (ت: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2/ 1420هـ- 1999م.

- أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: 502هـ)، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق الدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام – القاهرة، ط 1428/1هـ- 2007م.
- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري (ت: 257هـ)، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة: 1415 هـ.
- أبو بكر أحمد بن الحسين الخراساني البيهقي (ت: 458هـ)، شعب الايمان، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط 1/ 1423هـ – 2003م.
- أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد العبسي (ت: 235هـ)، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، ط 1/ 1409هـ.
- أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (ت: 211هـ)، المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت، ط 1403/2هـ.
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1/ 1420هـ- 2000م.
- أبو جعفر محمد بن جرير، الطبري (ت: 310هـ)، تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، ومعه صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، (ت: 369هـ)، دار التراث – بيروت، ط 2/ 1387هـ.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السِّجِسْتاني (ت: 275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: 303هـ)، المجتبى من السنن = السنن الصغرى، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط 2/ 1406 هـ- 1986م.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1421/1هـ- 2001م.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الله، الحاكم النيسابوري (ت: 405هـ)، في المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط 1/ 1411هـ- 1990م.

- أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري(ت: 256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط 1/ 1422هـ.
- أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (ت: 224هـ)، كتاب الأموال، تحقيق خليل محمد هراس.، دار الفكر. – بيروت.
- أبو عيسى، محمد بن عيسى، الترمذي (ت: 279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط 2/ 1395 هـ – 1975 م.
- أبو محمد أحمد بن محمد بن علي بن أعثم الكوفي (ت: 314هـ)، الفتوح، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ط 1/ 1411هـ - 1991م.
- أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام، (ت: 213هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2/ 1375هـ - 1955م.
- أحمد قائد الشعيبي، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، سلسلة كتاب الأمة، العدد 110، ط 1426/1هـ- 2005م.
- جاسم محمد راشد العيساوي، الوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها ، مكتبة الصحابة، الإمارات- الشارقة، ط 1/ 1427هـ-2006م.
- الدكتور راغب السرجاني، المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة – القاهرة، ط 1432/1هـ- 2011م.
- الدكتور محماد بن محمد رفيع، النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف، دراسة تأصيلية تحليلية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1433/1هـ 2012م.
- الدكتور محمد عمارة، الإسلام في مواجهة التحديات، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2007/1م
- الدكتور يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة وهبة- القاهرة، ط1413/3هـ-1992م.
- سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: 1385هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق – بيروت- القاهرة، ط 17/ 1412هـ.

- عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، دار الكاتب العربي، بيروت.
- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط 27/ 1415هـ /1994م.
- محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف بن أحمد البكري – شاكر بن توفيق العاروري، رمادى للنشر – الدمام، ط 1418/1هـ – 1997م.
- محمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي (ت: 1424هـ)، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة دار النفائس – بيروت، ط 1407/6هـ.
- محمد رشيد بن علي رضا (ت: 1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة: 1990م.
- محمد علي التسخيري، الحوار مع الذات والآخر، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية– طهران، ط 1424/1هـ– 2003م.